

ذ محمد عبدالرحمن علال



بين أحضان النية

رحلة الى ذكريات شابة مطلقة



الصورة من خيال
:تويبة محمد عبدالرحمن
علال

محمد عبدالرحمن علال

بين أحضان النية رحلة الى ذكريات شابة مطلقة

فتح احدهم البوابة الكبيرة لمحطة
الناقلات القريبة .سمعت هدير
محركات يملأ الفضاء وصراخ
العاملين بالمحطة ينادون ""لعيون
تاوريرت ، جرادة بركان أحفير
تاوريرت"" صار صراخهم يعلو قليلا
قليلا .اصبح دخان العربات يكتسح
المكان تنتشر على اثره روائح البنزين
كريهة تخنق الانوف .كان المصلون
يهرولون خارج الجوامع المجاورة
.حركة دائبة ووقع اقدام خفيف تحدته
النعال غير بعيد من هناك .ظهر
المسافرون يقصدون المحطة
بأمتعتهم المختلفة نوعا وحجما ووزنا
.لايزال صوت المحركات يصل المقهى
الذي كنا فيه ،ينبئ بقدوم الصباح .
استانفت العربات الصغيرة نشاطها
من جديد .اصوات تنادي المسافرين
الى سيارات الاجرة . كانت السيارات
مركونة في صف بديع بيضاء عليها

يافضات مكتوبة قد اطلقت العنان
لمحراتها بالغناء في ذلك الصباح
الوليد. كنت فقط أتأمل هذه الاشياء
. هذه المواقف ؛منتظرا ان تفتح احدى
الفنادق ابوابها فنحجز بها غرفة نداوي
جرح النوم فينا" . مع تصاعد حركة
المارة ، طلعت شمس ذلك اليوم
تستأذنهم في بسط اشعتها المذهبة
بالوان الاوراق الصفراء المتساقطة
على الارصفة . شمس خريفية تلون
سماء المكان بدفء المحلات التجارية
و الحياة تتبعث فيها عل مهل . من
هناك، يمر بائع النعنع يدفع عربته
الثائية العجلات . يغطي النبتة ذات
الرائحة الزكية بقطعة من كيس
مصنوع من خيوط القنب - اكياس كانت
توضع بها قوالب السكر المعدة للبيع
سابقا- بللها بماء بارد للتو. كان صوته
مرتفعا جدا ""نعناع نعناع ها
النعناع، اجيو أجيو"" . كانت الحياة تدب

متأنية تصخب مع مرور اللحظات. شرع اصحاب المحلات التجارية ينظفون واجهات دكاينهم حتى فاض الماء على الطريق العامة انهارا .ارتفعت اصوات القرآن الكريم في كل دكان يشق الى الاذان سبلا ويحدث فيها وقعا طيبا .بعضهم فضل افتتاح نشاطه باغنية لأم كلثوم أو لفريد الأطرش او غيرهم من مطربي شرق الوطن العربي .. مررنا بباعة الخبز حذاء باب سيدي عبدالوهاب .صففت بضاعتهم متناسقة مغرية .يغرون كل زبون يمر بالمكان :""خبز الزرع خبز الزرع قَرَّبُ قَرَّبُ قرب قرب ،ها الخبز هنا""كنا تائهن والصباح لا يزال في اوله .نسارع الخطى نحو الفندق نبغي الراحة والنوم.قصدنا احد الفنادق على مقربة من محطة كبيرة للحافلات 'فندق إسلي' ، لكننا رددنا على اعقابنا خائبين .""كل الغرف مشغولة.انا

آسف يا جماعة" يقول عامل الفندق وهو يفرك عينيه من قلة ما نام . كان فندقا واسع الارحاء ،سمي باسم احدى المعارك مع المستعمر .كانت بناية قديمة نوعا ما .استقرت في وسطها نافورة ماء جاف حوضها.تعلوها استدارتان من رخام مختلفة مساحتهما . بناية ظلت تقاوم القدم لسنين.اخلىنا المكان متجهين نحو المجهول .كنا نسير فقط واملنا ايجاد فندق اخر يستقبلنا. لم يعد في الشارع مكان نسير فيه ولا حتى على الرصيف,ازداد "طريق مراكش" ازدحاما .هناك ،كانت ترسو ناقله "زناقة" الى فجيج عند العاشرة صباحا والىها عند المساء .مشينا ومشينا عبر ذلك الطوار العامر. اناس من مختلف الاعمار يهرولون كلا الى مبتغاه ومقصده.لم يتأخر "الفرّاشة"" في ملء ذلك الطوار بسلع يعرضونها للبيع

كان بعضهم يقطع الطريق امام
المارة ""ركلام ريكلام
ريكلام""جوارب ومنشفات لنظافة
الانف وفوطات وما صغر من بضاعة
وخل وزنها.كانت سريعة الحمل عند
أي طارئ أو مطاردة.بلغنا ساحة
الحمام حيث انتصب مبنى البلدية يمينا
.شامخا يعانق الشمس الطالعة. تسير
الهوري على سماء المدينة .ترأى
امامنا مبنى فندق على واجهته يافطة
يحمل اسم احدى المدن بفرنسا
""نيس""سعيانا نحوه نسابق
الزمن.هنا بدأت حكاية أخرى. صعدا
درجا من الاسمنت والفسيفساء نحو
الغرف . سلم كثرت أدراجه واتسعت
مساحة .حتى اذا انهينا الدرجات
،صادفتنا بابا فتحت صباحها في وجهنا
بابتسامة عريضة لامرأة متقدمة في
السن قليلا .سألتنا المرأة ان كنا نريد
غرفة فأجبنا ايجابا .""هل تريدان

غرفتين ام واحدة فقط؟"" تسأل
المرأة مرة اخرى كانت تلبس البياض
كالملاك .بيدها مكنسة توقفت عن
استعمالها احتراماً لنا.كنا نرغب في
الاستراحة من السفر ومن تعب ذلك
الليل الطويل في المقهى .جمعتنا
غرفة واحدة .جلسنا على احد الاسرة
تتفق عن برنامج ذلك اليوم .كنا نريد
ان نأخذ فطورنا ومن ثم نذهب
للتجول قليلا في احياء المدينة التي لا
تفارقها الغرابة .اتفقنا على دخول
السينما ،سينما "باريس" كانت تشهر
لافلامها بصور المشاهير على جدار
في مكان مخصص للاعلامات
السينمائية قبالة شارع محمد الخامس
.به باب تؤدي الى حي قديم .ربما
كان يؤدي الى مكان يطلق عليه
الناس هناك ""سوق لغزل""تميزت
السوق وعرفها الداني والقاصي
بنشاطها وحركتها .استلقينا على

السريـر تتحدث عن مكان قضاء الوقت بعد فترة السينما المسائية ، فجأة غبنا عن الوجود، بقيت باب الغرفة التي احتضنت فترة نومنا مشرعة الفتح. كانت اطرافنا السفلى على الارض ، بينما كان ما تبقى من جسمنا على السرير . لم نخلع أحذيتنا كما يفعل الناس عادة. لم نتبه لصوت ولا اقلق نومنا طيف خيال . هكذا وجدنا انفسنا بعد الخامسة مساء من ذلك اليوم الذي لم نر منه سوى ساعات الصباح القليلة . ربما مرت عاملة الفندق تتفقد الغرف ولم ترغب في ازعاجنا. تركنا نغط في نوم ثقيل. ظلت حقائبنا ملقاة على الارضية بما احتوت من نقود واوراق ثبوتية . قمت مسرعا اتفحص حقيبتى قبل ان اوقظ مرافقى . كل شيء كان في مكانه. ما نقص شيء . اغلقت باب الغرفة . أيقظت مرافقى ودخلنا في حديث

طويل والظلام آخذ في النزول .بعد حين من الزمن ، وجدنا نفسيينا بين احضان شارع محمد الخامس بحثا عن صيد ثمين .مررنا من امام مطعم راقى جذبنا اليه منظر دجاج يشوى على نار مهيلة داخل آلة عجيبة .كانت رائحته تهاجم الانوف وتخترق المناخير وتبعث الشوق الى الطعام عند كل جوعان"" .بعد وقت وجيز من التسكع بين الدروب القديمة بوجدة ،عادت بنا الادراج الى ذلك المطعم الشهية وجبات طعامه، دخلنا ،اخذنا مكاتنا حول احدى الطاومات .لم نتظر قليلا حتى جاءنا النادل "بماذا اخدمكما ؟ عندنا الدجاج ،عندنا اللحم ،عندنا القضبان"" وقف قليلا قبل ان ينصرف وفي جعبة عقله طليبتنا "" دجاجة مشوية .دجاجة مشوية من فضلك مع البطاطس المقلية والموناضا"" كان الدجاج المشوي

على ذلك التاريخ يمثل الفخامة .يشير الى المكانة والغنى و'الابهة' كان يرمز الى كل المعاني الرفعة الاجتماعية . تجلى ذلك بينا في الثمن الذي يدفع مقابله آنذاك.حضر نادل آخر .وضع اوراقا عريضة على الطاولة. عاد النادل الاول يحمل بيد سلة صغيرة بها قطع خبز صغيرة الحجم .و باليد الأخرى يمسك صحنًا صغيرًا به فاصوليا. وضع الكل في زاوية من طاولتنا .تقدم النادل الاخر يحمل تلك التي كنا نتظرها بلهفة كبيرة ،يحمل دجاجة تحيط بها قطع بطاطس مقطعة بشكل بديع.شمرنا على السواعد بعد تقديم عبارات الشكر للنادل.بادلناه ابتسامة سريعة بعد ان تمنى لنا الصحة بذلك الطبق.سلطنا اعيننا على الطبق ثم انهال كل واحد منا يمزق اللحم الابيض بوحشية وشراسة .تقدم الينا النادل سائلا ان

كنا نرغب في خدمة ما . سألته:"هل نسيت المشروب ام تعمدت ألا تأتينا به؟"" اعتذر وانطلق يحضره على التو . كانت نهاية تلك الوجبة رفاة متاثرة على ذلك الصحن"" .. مشينا معا على احد الارصفة التي صارت تفرغ مودعة المارة وقد اشتد سواد الليل . شلت الحركة تماما الا في زاوية قرب سينما باريس حيث تجمع خلق . كانت اضواء البناية منيرة تتراقص الوانها زهاوة . اقتربنا لمسافة أكبر لا يفارقنا النظر الى لافتة اعلى حائط واجهة البناية . كان العنوان ""غاندي"" تفحصنا اليافطة مليا ثم تقدمنا معا نحجز مقعدنا لتلك الليلة . ""سبعة دراهم سبعة دراهم"" بقول احد الباعة . كان شابا لطيف المظهر . يمسك بيد ما يشبه كراسة صغيرة اقتطع منها ورقتين وسلماهما لي .ناولته المبلغ وانصرف عنا الى زبون

آخر"" .حان وقت الدخول الى قاعة العرض .تسللنا بين الجموع الغفيرة التي حجت الى مكان السهرة،مررنا بهو على جدرانه ما يشبه نوافذ قليلة العمق ذات طول كبير يغلفها زجاج ؛يبدو من خلاله اعلان الفيلم الذي سيعرض الليلة وصور لاعلانات الافلام المطولة القادمة .كانت سينما باريس على ذلك التاريخ تقدم افلاما ذات جودة عالية وقيم متنوعة المواضيع والمقاصد . كان يغلب على تلك الحقبة من تاريخ المغرب اضطرابات واحتجاجات يقودها الطلبة والمتعلمون والطلاب. كانت سنة الف وتسعمائة وتسعة وسبعين متميزة بحق على هذا المستوى .دخلنا القاعة الكبيرة ذات كراسي عديدة تطوى .بعد اشارة من ضوء احمر صغير اعلى باب المدخل .اخذت مقعدي حذاء مرافقي .صرنا نتنظر فقط

انطفاء الازواء البيضاء وانتقالها الى
الضوء الاحمر ثم لتتطفئ بالكامل
وتسمح للعرض بالبدء "" ..ظهرت
على الشاشة الكبيرة اعلامات لافلام
ستعرض في قادم الاسابيع .ظهرت
الشخوص والاشياء على الشاشة
كبيرة تلفت الانظار .كانت مواضيع
الاحداث التي ستلعب أدوارها تلك
الشخصيات مشوقة تغري بالمتابعة
.احسست للحظات اني وسط تلك
الاحداث .انني في مواطن تصويرها
،كنت احيانا في امريكا واخرى في
باريس ،كنت في احد شوارع ايطاليا
واحيانا اطيير الى ادغال افريقيا واسيا ،
رأيت نفسي في لحظة ما امشي
مشية ""كلينت استوود ""في احدى
ادواره البطولية بفيلم ""على خط النار
"" رأيتني ""انطوني كوين في فيلم
"عمر المختار "" حيث كان سيعرض
في هذه القاعة قريبا .ورأيتني

""سيلفستر سطلون في رباعيته
""رامبو" كنت امثل كل تلك الشخصيات
.احلم بغيرها بين جدران ذلك الفضاء
الصاحب بالموسيقى التصويرية .هل
كنت فعلا تلك الشخصيات ام كنت
فقط انا الحالم؟لم اكن في تلك
القاعة ابدا ولم اتبه لمن فيها الا حين
اضئت الانوار من جديد وسمعت
احدهم ينادي من مكان ما
""اوتتراكت اوتتراكت""كان اللسان
الفرنسي يغلب على الحديث انذاك
.يشعر من يتحدثه بالاستعلاء والفخر
لطلاقة لسانه بتلك اللغة.قمنا نسابق
الخطى للخروج ،فاذا بنا عند بائع
الحلويات عند وكن مجاور .سطعت
في دكانه انوار بيضاء فتانة.وجدتني
اقول بأدب شديد ،""عطيني ملْفايَ
وكأس حليب بارد الله إخْلِيكُ "تناولنا
الحلوى والحليب .كنت أتأمل الشارع
الفارغ الا من بعض العربات التي

يعود اصحابها متاخرين الى بيوتهم. كانت اضواء دكان صاحب الحلوى جذابة حقا ولذلك كانت عامرة. ظهرت بعض بنات حواء غير بعيد في حديث مع احد الشبان. يمسكن بقطع الحلوى. يتناولنها باسمات. تميل احدهن من شدة الضحك فيتدلى شعرها كالسراب قبل ان ترتفع بحركة خفيفة براسها ثم تكمل ما تبقى مما بيدها. صاح أحدهم: ""غدي بيدي الفيلم غدي بيدي الفيلم ،راها طفات الضو"سيبدأ العرض لقد انطفأت الانوار داخل القاعة ،وها نحن نسمع صخب الموسيقى ،موسيقى التصويرية . بدأ الفيلم فعلا .اخذنا اماكتنا بين الجالسين في الصف الامامي المقابل لخشبة المسرح ، كنا منخفضين كثيرا عن بقية الذين كانوا خلفنا من المتفرجين .اخرجنا كما كان يفعل

الكثيرون ما في جيوتنا من حبات عباد
الشمس .اتجهنا بانظارنا صوب
الشاشة العملاقة ،ثم انطلقنا نقضم
حبات "الرريعة "كما تعارف الناس
عليها انذاك.ذبنا معها ومع احداث
الشريط المطول كل الذويان .أطبق
الصمت على الحاضرين .لا حديث الا
ما يحدثه صوت الممثلين على الشاشة
والمكبرات.فجأة""... فجأة وقف
احد المتفرجين في مكان ما من تلك
القاعة العريضة،وقف يصيح باعلى
صوته :""الله اكبر الله اكبر "